جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

استشراف النبي ﷺ للمستقبل في حديثه " يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ " أساليب ودلالات

Foreseeing The Prophet For The Future In His Hadith" Nations Are About To Fall Upon You" Methods And Connotations

إعـــداد
د/ عبد الوهاب عبده أحمد علي
مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الرابع-نوفمبر)
(الجزء الأول (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

استشراف النبي ﷺ للمستقبل في حديثه: " يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ " أساليب ودلالات

عبد الوهاب عبده أحمد علي

قسم البلاغة والنقد، بكلية اللغة العربية بجرجا

البريد الإلكتروني: *abdelwhababdo@gmail.com*

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، صلي الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا البحث يقدم دراسة بلاغية تحليلية لحديث نبوي شريف يصور فيه الرسول ﷺ الواقع الذي تعيشه أمتنا الإسلامية اليوم، وإنه لينطق بصدق نبوته ﷺ، وبما أخبر به، وهذا الحديثُ يمثِّلُ قطعةً نثريةً فريدةً من الحوارِ الهادفِ والمتميِّز بينه ﷺ وبين صحابته الكرام، حيث يبدأ ببيانه ﷺ لِمَا سيؤول إليه حال المسلمين في المستقبل القريب، ويؤثر ذلك الخبر في نفوس سامعيه، فيدفعهم إلى التساؤل عن سبب ذلك، فيجيبهم ﷺ جوابًا في غاية من الدقة والوضوح .

فقمتُ بقراءةِ هذا الحديث في مواضعه؛ للوقوف على رواياته، ثم قمت بقراءة شروحه في مواضعها، ثم عمدتُ إلى دراستِه بلاغيًا، مستعينا بالمنهج التحليلي القائم على الاستقراء؛ بُغيةَ الوقوفِ على البلاغةِ النَّبَوِيَّةِ وراء النَّظم النَّبَوِي الشريف، ومن ثم جاء البحث – بعد المقدمة والتمهيد– في ثلاثة مباحث، الأول: إخبار النبي ﷺ بما ستؤول إليه الأمة، والثاني: حوار النبي ﷺ مع من يسأل عن أسباب ضعف الأمة، والثالث: بيان النبي ﷺ للأسباب الحقيقية لضعف الأمة، ثم الخاتمة وفهرس بأهم المصادر والمراجع، والله الموفق والمستعان.

الكلمات المفتاحية : استشراف النبي ﷺ، أساليب، دلالات.

Foreseeing The Prophet For The Future In His Hadith" Nations Are About To Fall Upon You" Methods And Connotations

Abdul wahab Abdo Ahmed Ali
Department of Rhetoric and Criticism , Faculty of Arabic Language in Girga

Email: ***abdelwhababdo@gmail.com***

Abstract:

Praise be to God, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the Master of Messengers, may God bless him and all his family and companions, and after:

This research presents an analytical rhetorical study of an honorable prophetic hadith in which the Messenger, may God bless him and grant him peace, depicts the reality that our Islamic nation is experiencing today, and that he speaks the truth of his prophecy, may God bless him and grant him peace, and what he told him. This hadith represents a unique prose piece of purposeful and distinguished dialogue between him, may God bless him and grant him peace. And peace be upon him and among his honorable companions, as he begins by explaining, may God's prayers and peace be upon him, what the condition of Muslims will be like in the near future, and that news affects the souls of his listeners, prompting them to ask about the reason for that, and he, may God's prayers and peace be upon him, gives them an answer with the utmost precision and clarity.

I read this hadith in its places to understand its narrations, then I read its explanations in their places, then I studied it rhetorically, using the analytical method based on induction, with the aim of understanding the prophetic eloquence behind the noble prophetic system. Then the research came - after the introduction and the preface - in three sections: the first: the prophet's telling of what the nation would become, the second: the prophet's dialogue with those who asked about the reasons for the nation's weakness, and the third: the prophet's clarification of the real reasons for the nation's weakness, then the conclusion and an index of the most important sources and references, and Allah is the Grantor of success and the One sought for help.

Keywords: ***Foreseeing The Prophet, Methods, Semantics***

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى المَبْعوثِ رحمةً للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه والتابعين سبيلَه إلى يوم الدين، **وبعد** :

فإنَّ البيانَ النَّبَويَّ الشَّرِيْفَ جمع بين طياته الكثير من دلائل نبوته ﷺ، والتي منها ما جاء في حديث " ثوبان ﷺ " أنَّه ﷺ قال: " يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُم ..."، وهذا الحديث جمع في بنيته التركيبية الكثير من الأساليب ذات الدلالات الفياضة، التي هي من الأهمية بمكان، وتستدعي الوقوف عندها لإظهار ما فيها من دقة نظم وجلالة معني يتكشَّفان لمن ملك ذوقًا سليمًا، ورُزِق أنوار البصيرة، لذا آثرت دراسة هذا الحديث دراسة "تحليلية بلاغية" تكشف عن بلاغة القائل الكريم ﷺ، وكيف ملك زمام اللغة وتكشَّفت له عن أسرارها، وترجع دواعي هذا الاختيار إلى ما يلي :

١- أنَّ هذا الحديثَ النَّبَويَّ الشريفَ يُصوِّرُ واقعَ المسلمين المَرير، حيث تداعت عليهم الأمم رغم كثرتهم العددية المسلوبة القيمة والإرادة .

٢- هذا الحديثُ يؤكدُ نبوءته ﷺ، حيثُ يُخْبِرُ عن حُبِّ المسلمين للدُّنْيا، وكراهيتهم الموت مما أدي إلى ضعفهم، واستهانة أعدائهم بهم .

٣- أنَّ دراسةَ مثل هذه الحديث تُعَمِّقُ الإيمانَ به ﷺ، وبما جاء به مما يُحَقِقُ الفوزَ في الدُّنْيا والآخرة .

فقمتُ بقراءةِ هذا الحديث في مواضعه؛ للوقوف على رواياته، ثم قمت بقراءة شروحه في مواضعها، ثم عمدتُ إلى دراستِه بلاغيًّا، مستعينا بالمنهج التحليلي القائم على الاستقراء؛ بُغيةَ الوقوفِ على البلاغةِ النَّبَوِيَّةِ وراء النَّظم النَّبَوِي الشريف، ومن ثم جاء البحث – بعد المقدمة والتمهيد- في ثلاثة مباحث، الأول : إخبار النبي ﷺ بما ستؤول إليه الأمة، والثاني: حوار النبي ﷺ مع من يسأل عن أسباب ضعف الأمة، والثالث : بيان النبي ﷺ للأسباب الحقيقية لضعف الأمة، ثم الخاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجع .

واللهَ أسألُ أنْ يجعلَ عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، ومنه وحده أستمدُ العَوْنَ والتَّوفيقَ

التمهيد

استشراف المستقبل من دلائل النبوة

جاءت السنَّة بمسائل من الغيب أخبر بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوحي من ربِّه تعالى، وهذا من دلائل نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومما ثبت في ذلك:

١- قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابنته فاطمة رضي الله عنها (وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي)[١]، قال الحافظ ابن حجر(ت:٨٥٢هـ): " وفي الحديث إخباره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما سيقع، فوقع كما قال، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول مَن مات مِن أهل بيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده حتى مِن أزواجه"[٢] .

٢- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ وَهْوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[٣]، قال بدر الدين العيني(ت:٨٥٥هـ): " قوله: (فئتين عظيمتين) ووصفهما بالعظيمتين لأن المسلمين كانوا يومئذ فِرقتين: فِرقة مع الحسن ﷺ وفرقة مع معاوية، وهذه معجزة عظيمة من النبي حيث أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر"[٤] .

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٢٦) بَابُ: عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ ، ومسلم برقم (٢٤٥٠) بَابُ فَضَائِلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

(٢) فتح الباري لابن حجر تح: محمد فؤاد عبدالباقي(٨ /١٣٦) ط: دار المعرفة– بيروت ١٣٧٩هـ.

(٣) رواه البخاري برقم (٢٧٠٤) بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ .

(٤) عمدة القاري للعيني(٢٨٢/١٣) ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣- عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ؛ فَقَالَ (يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ[١]) قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: (فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[٢] تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ (وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى) قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ؟ قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ) قَالَ عَدِيٌّ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ (يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ)[٣]، وآخر الحديث عند الإمام أحمد: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا"[٤] .

---

(١) (الحَيْرَة) :بلد معروف قديما مجاور للكوفة .

(٢) (الظَّعِينَة): المرأة في الهودج .

(٣) رواه البخاري (٣٥٩٥) بَابُ: عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ .

(٤) في مسنده (١٩٧/٣٠) برقم (١٨٢٦٠) باب: حَدِيثُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ ، ط: أولي مؤسسة الرسالة.

والحديث واضح الدلالة فيما نحن فيه، وقد تحققت النبوءة الثالثة في زمن الخليفةِ الراشدِ عمر بن عبد العزيز"[١].

ومن الأمور التي أخبر بها النبي – صلى الله عليه وسلم– الضعف والهوان الذي سيصيب الأمة من بعده وتكالب أعدائها عليها، فعن ثوبان ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) وواقعنا اليوم خير شاهد على تحقّق ذلك .

وهذا الانحدار الذي حذّر منه النبي – صلى الله عليه وسلم– كان نتيجةً حتميةً لافتراق الأمة واختلافها، والتقليد الأعمى للأمم الكافرة وسلوك سبيلها، وقد بيّن النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك في قوله: (افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ»)[٢]، وقوله : (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ،

---

(١) مستفاد من : بحث بعنوان : دلائل النبوة الغيبية المستقبلية في السنة النبوية دراسة تأصيلية للباحثة زينب إسماعيل أحمد، ص ٧٦١ وما بعدها ، منشور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق العدد الرابع المجلد ٣٢ أكتوبر ٢٠٢٠م، ومقال بعنوان: (الأخبار المستقبلية في القرآن والسنَّة وتحقق وقوعها من أدلة صدق هذا الدِّين، موقع الإسلام سؤال وجواب بإشراف الشيخ/ محمد صالح المنجد، شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) برابط مباشر:
(https://islamqa.info/ar/answers/165680) .

(٢) رواه ابن ماجة برقم (٣٩٩٢) بَابُ افْتِرَاقِ الْأُمَمِ ، ١٣٢١/٢ ط: دار إحياء الكتب العربية .

وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»)[1] .

توثيق الحديث :

هذا الحديث ورد في أكثر من موضع في كتب الحديث، منها: "سنن أبي دواد (ت: ٢٧٥هـ)، التاريخ الكبير للبخاري(ت:٢٥٦هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل(ت:٢٤١هـ)، المعجم الأوسط للطبراني (ت:٣٦٠هـ)، المعجم الكبير للطبراني، مسند الشاميين للطبراني، إطراف المُسْنِد المعتَلِي بأَطراف المسنَد الحنبلي لابن حجر العسقلاني(ت:٨٥٢هـ)، جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي(ت:٩١١هـ)، جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير(ت:٦٠٦هـ)، شعب الإيمان للبيهقي (ت:٤٥٨هـ)، كنز العمال للمتقي الهندي(ت:٩٧٥هـ) .

وقد آثرت أنْ أجعلَ رواية [أبى داود (ت: ٢٧٥هـ)] هي الأصلُ في الدِّراسَةِ، وهذا نصُّها : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "[2] صدق رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٥٦) بَابُ: مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

(٢) سنن أبي داود السِّجِسْتاني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ، حديث رقم ٤٢٩٧ باب :"فِي تَدَاعِي الْأُمَمِ عَلَى الْإِسْلَامِ" ١١٢/٤، ط : المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – غير مؤرخة ، المعجم الأوسط للطبراني ١٨٠/٧ حديث رقم ٧٢١٥ ط: دار الحرمين – القاهرة ، التاريخ الكبير للبخاري ١٦١/٤ حديث رقم ٣٠٥٥ باب: ضرار ط: دائرة المعارف العثمانية، المعجم الكبير ←←←

المعني العام للحديث :

النبي ﷺ بهذا الحديث يستطلع حالَ الأمة الإسلامية، ويبين مستقبلَها، فيكشف عن أمور ستحدث في المستقبل القريب من الزمان – حيث كان ﷺ على دراية بما مضى، وبما هو حاضر، وبما هو آتٍ؛ لأنَّ الله تعالي أفاض عليه من علمه الغزير – وهذا من معجزاته ﷺ، والحديث بأسلوبه الخبري الذي استهل به يتضمنُ حكمًا جديدًا قد استغربهُ الصحابة الكرام، حيث أخبرهم ﷺ بقرب تداعي الأمم عليهم، وصَوَّر ذلك بدعوة الأكلة بعضهم بعضًا إلى الطعام، فهال هذا الخبرُ وشَقّ على الصحابة، فجاء سؤال أحدهم عن السبب الذي سيؤدى بالمسلمين إلى هذا الأمر، وقد تصوّر أنَّ القِلَّة قد تكون وراء ذلك، وجاء رَدّه ﷺ ناقضًا التصور الذي تبادر إلى ذهن السامع، وقبل أنْ تذهبَ الدهشةُ بالمتلقي مذهبها، بادره ﷺ بنقض آخر ينفي فاعلية هذه الكثرة المثبتة، والمنطوق بها في الحديث، إذ أتبع ﷺ بيانه ببيان الفوارق الجوهرية بين حال المسلمين آنذاك، وحال أعدائهم، فنزع المهابة من قلوب الأعداء يقابله قذف الوهن في قلوب المسلمين، ودفع هذا أحد الصحابة لمعرفة حقيقة هذا الوَهْن الذي سيلحق بالمسلمين قريبًا، وتأتي إجابته ﷺ واضحة وموجزة "حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

→→→

للطبراني ١٠٢/٢ حديث رقم ١٤٥٢ ط: ثانية مكتبة ابن تيمية – القاهرة، جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي ٢٨١/٢٤ ط: دار الإفتاء المصرية، ط: الأولى١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م، جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير٢٨/١٠ حديث رقم ٧٤٨١ ط: أولى مكتبة الحلواني ودار البيان– القاهرة ، شعب الإيمان للبيهقي ٧ /٢٩٧ حديث رقم ١٠٣٧٢ ط:مكتبة الرشد– الرياض٢٠٠٣م ، كنز العمال للهندي ٢٣٠/٩ حديث رقم ٣٠٩١٦ ط: خامسة مؤسسة الرسالة ، مسند الإمام أحمد ٦١/٩ حديث رقم ٢٢٣٩٧ ط: دار الحديث – القاهرة ، مسند الشاميين للطبراني ٣٤٤/١ حديث رقم ٦٠٠ ط: أولي مؤسسة الرسالة – بيروت ، إطراف المُسْنِد لابن حجر ٦٧٠/١ حديث رقم ١٣٥٧ ط: دار ابن كثير – دمشق .

المبحث الأول

إخبار النبي ﷺ بما ستؤول إليه الأمة .

هذا عن المعني العام الإجمالي للحديث، أما عن الكيفية الأسلوبية التي تحقق بها هذا المعنى في دقة وإحكام – وهو درس من دروس البلاغة النبوية – والتي لم تتيسر لأحد من البشر تيسرها له ﷺ، فسنقف عندها بما فتح الله به، عارضين للعناصر المكونة للأسلوب في محاولة للكشف عن دور كل منها في تأدية المعني الذي أراد ﷺ تبليغه لأمته، فالحديث استهل بهذا البناء الفعلي "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ "، وفي رواية الإمام أحمد والبيهقي : "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ"(١)، وهذا النظم في تنوع تعبيراته، وصيغه ليدل على معرفته ﷺ بدقائق اللغة، إذ يقال: يُوشِكُ أَن يَكُونَ الأَمرُ، ويُوشِكُ الأَمرُ أَن يَكُونَ(٢)، ونري البلاغة النبوية واضحة في اختيار الألفاظ ذات الدلالات الموحية، فكلمة "يُوشِكُ ": بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الشِّين(٣) – وفتحها لغة رديئة – أَيْ يَقْرَب ويُسْرِعُ، مضارع أَوْشَك، وهو أكثر استعمالاً منه، حتى أنكر الأصمعي مجيئه ماضياً، وقال: هذه اللفظةُ لا تأتى في الماضي، فلا يقال: أَوْشَك،

---

(١) مسند الإمام أحمد (ت:٢٤١هـ) تح : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد ، وآخرون ، حديث رقم ٢٢٣٩٧ باب : (وَمِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ) ٨٢/٣٧ ، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، وشعب الإيمان للبيهقي ت: ٤٥٨ هـ تح: محمد السعيد بسيوني زغلول، حديث رقم ١٠٣٧٢ باب: باب في الزهد و قصر الأمل ٢٩٧/٧ ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط: الأولى١٤١٠هـ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٥١٤/١٠ "وشك" ، ط: دار صادر – بيروت ، ط: الثالثة ١٤١٤هـ .

(٣) قال الزُّبيدي :"ولا تُفْتَحُ شِينُه وبه جَزَم الحَرِيريُّ في دُرَّتِه وتابَعَه الشِّهابُ في الشَّرحِ أَو لُغَةٌ رَدِيئَةٌ عامِّية كما في الصِّحاحِ قال غيرُه: ولا يُقالُ أُوشِكَ أَيْضًا" [تاج العروس "وَشُكَ" ٣٩١/٢٧ ط: دار الهداية] .

وإنما تأتي في المستقبل "يُوشِك" بكسر الشين، وهو مردود بمجيئه في كلامهم، قال الشاعر:

وَلَـوْ سُـئِلَ النَّـاسُ التَّـرَابَ لأَوْشَـكُوا إِذَا قِيلَ هَاتُوا أَنْ يمَلُّوا وَيَمْنُعَوا[١]

قال " ابن هشام (ت:٧٦١هـ)" في أفعال المقاربة :"هذه الأفعال ملازمةٌ لصيغة الماضي إلا أربعةً اسْتُعمل لها مضارع وهي : كاد ... أوشك ... جعل ... طفق"[٢].

فـ" أَوْشَكَ" من أفعال المقاربة تفيد الدنوّ من الشيء، وقُرب وقوعه، إذ معناه: أنك ترى عن قرب ما يخبرك به[٣]، وهو ما وُضع لِدُنو الخبر رجاءً أو حصولاً، وفي الحقيقة من النواقص؛ لأنها لتقرير الفاعل على صفة على سبيل المقاربة، يقال: أوشَكَ: إذا أَسْرَعَ وَقَرُبَ، يُوشِكُ إِيشاكًا، والإيشاكُ : الإسراع، والوشك: الإسراع، يقال: أوشك فلان الخروج، أي: استعجل، وأَمْرٌ وَشِيْكٌ أي قريب[٤]، وهي من أخوات " كان" ترفع المبتدأ، وتنصب الخبر، وهذه اللفظة ومشتقاتها لم ترد في النظم القرآني، وهي قليلة الاستعمال في البيان النبوي الشريف، وكأن غرابة استعمالها يتناسب مع غرابة المعني؛ لأنَّ تداعي الأمم على المسلمين بعد أن انتشر الإسلام، وكثر تابعوه، وقويت

---

(١) ينظر: الأجوبة الجَلِيَّة لمن سأل عن شرح ابن عقيل على الألفيَّة١٦٧/١ ط: مكتبة لسان العرب– الرياض، لسان العرب ٥١٤/١٠ "وشك"، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين١٣٢/١ ط: الرابعة دار المعرفة بيروت ١٤٢٥هـ، إكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم للقاضي عياض٢٩٩/٦ ط:الأولي دار الوفاء– مصر ١٤١٩هـ، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١٣١/٦ ط : الأولي دار ابن كثير– بيروت١٤١٧هـ.

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: محمد محيى الدين ٢٦٥/١ ط: دار الطلائع – القاهرة٢٠٠٤هـ .

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ١٣١ .

(٤) يراجع: شرح سنن أبي داود للعيني ١٢٥/٢، ط: أولى مكتبة الرشد– الرياض ١٤٢٠هـ .

دولته أمر مُسْتغرب بالنسبة للمخاطبين، وهو من مراعاة النظير، والفعل "أوشك" يأتي خبره فعلا مضارعاً مقترناً بـ "أنْ" كثيراً كما هو واضح في الحديث، وقد جاء "يوشك" قيداً للفعل " تداعى" لإرادة إطلاع الحاضرين على قرب زمنه، كي يكونوا على استعداد لمواجهته، و"الأمم" الواقع اسما لـ "يُوشِكُ " جمع أمة، والأُمَّةُ: القَرْن مِنَ النَّاسِ، يُقَالُ: قَدْ مَضَتْ أُمَمٌ أَي قُرُونٌ[1]، وَالْمُرَادُ مِنَ الْأُمَمِ هنا فِرَقُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ[2]، وهي شتى، وهذا يعني تتابع التداعي على المسلمين، واستكانتهم لهذا الضعف، وعدم أخذهم بأسباب القوة[3]، والتعبير بـ "الأمم" هنا أبلغ مما هو في معناه؛ للإيجاز من ناحية، وللتهويل من شأن هذه الأمم، لشموله جميع الأمم في مواجهة أمته ﷺ من ناحية ثانية، ولاجتماع هذه الفرق على أمر واحد، هو إيقاع الضرر بالمسلمين، والعمل على تفريق كلمتهم، وتشتيت وحدتهم، وسلب خيراتهم، ونهب ثرواتهم، وبذل كل الجهود الممكنة في سبيل إضعافهم، والتقليل من شأنهم ووجودهم على هذه البسيطة، لكل هذه المعاني كان التعبير بالأمم هو الأنسب لهذا السياق .

وأل في "الأمم" للعهد العلمي، إذ لم يتقدم لمدخولها ذكر لا صريح ولا كنائي، ولكنه معروف عند المخاطب، فجميع الأمم عدا الإسلامية تترك جميع خلافاتها، وتتوحد عندما يكون الهدف أمة الإسلام، وهذا واقع ملموس يجعل القلوب تنزف دمًا، وتزداد الحسرة والألم.

---

(١) لسان العرب ٢٦/١٢ "أمم" ط : دار صادر – بيروت .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي ٢٧٢/١١ ، ط: ثانية دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ .

(٣) والأُمَّةُ: الجِيلُ والجِنْسُ مِنْ كُلِّ حَيّ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّة فِي ٱلأَرضِ وَلَا طَٰٓئِر يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمثَالُكُم ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: لَوْلَا أَنَّ الكِلاب أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْت بقَتْلِها. (لسان العرب ٢٧/١٢ "أمم").

والفعل "تداعى" بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائَيْنِ، أَيْ: تَتَدَاعَى، بدليل رواية الطبراني (ت:٣٦٠هـ): يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى...[١]، والمعني : أن يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُمْ وَكَسْرِ شَوْكَتِكُمْ وَسَلْبِ مَا مَلَكْتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ[٢]، وحذف إحدى التائين جاء اختصارًا في صيغة الفعل، للدلالة على السرعة، وصيغة الفعل فيها التفاعل والمشاركة، وهذه المشاركة قد تكون للنفع، وقد تكون للضر، وهنا يستجلب النظم من القيود ما يفصح عن المراد، فعندما يكون المعني الموأم النفع تأتي اللام قيدًا للفعل، لما توحي به من الملكية المؤذنة بالانتفاع، كما في قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[٣]، فاللام في " تَدَاعَى لَهُ " جاءت لتحدد المراد من التداعي تحديدًا دقيقًا، وتخلصه للنفع؛ لأنَّه ناتجٌ عن شعور جميع الجسد بما يشعر به أي عضو منه، أما وقد جاء الحرف (على) "تَدَاعَى عَلَيْكُمْ" فقد خلص الفعل لإرادة الضر ؛ لأنَّ "عَلَى" تشعرُ بالثقل المؤذن بالتضرر، فالتداعي هنا للشر قطعًا، والتعبير بـ " تداعي" أوضح في الدلالة على المراد، لِمَا فيه من سرعة الاستجابة، إذْ يُقَالُ:" تَدَاعَى الْكَثِيبُ مِنَ الرَّمْلِ إِذَا هِيلَ فانْهالَ... وتَدَاعَى عَلَيْهِ الْعَدُوُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: أَقْبَلَ، مِنْ ذَلِكَ، وتَدَاعَت القبائلُ عَلَى بَنِي فُلَانٍ إِذَا تأَلَّبوا وَدَعَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى التَّناصُر عَلَيْهِمْ "[٤]، وهذه إشارة إلى وحدة الهدف، فهذه الأمم لسان حالها: دمِّروا الإسلام، أبيدوا أهله،

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، حديث رقم ١٤٥٢ ، باب: من اسمه ثعلبة ، ط: دار إحياء التراث العربي ، ط: الثانية١٩٨٣م .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٢/١١ .

(٣) صحيح مسلم ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ٢٥٨٦، بَابُ: تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، ١٩٩٩/٤ ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٤) لسان العرب ١٤/ ٢٦٢ (دعا) ط: دار صادر – بيروت .

وكلمة "تَدَاعَي" هنا كلمةٌ محوريةٌ، تعني من أي جهة، ومن كل وجهة[١]، وبكل وسيلة، فلا يقتصر الأمر على التَّداعِي الحِسِّي المتمثل في التداعي العسكري، بل يشمله، ويشمل التداعي الاقتصادي بكل صوره، والتداعي الإعلامي الذي تعددت مظاهره في العمل على تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وأنهم أعداء البشرية، وأضداد الحرية، ومنهم الإرهابيون الذين يعبثون بمقدرات الشعوب ومقومات الأمم، ويستبيحون الأعراض والأموال، وفي المؤتمرات العالمية نجد التحزُّبَ ضد العرب والمسلمين واضحًا، وهو معنى أفصحت عنه الكلمة في مدلولها اللغوي، إذْ إنَّ من معاني" التَّداعِي: التَّحاجِي"[٢] .

ورواية الإمام أحمد "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ"[٣]، واخْتُلِفَ في حالة وقوع اسم ظاهر بعد "أنْ" والفعل، وذلك على النحو التالي :

١- ذهب الشَّلَوْبين: إلى أنّه يجب أن يكون الاسم الظاهر مرفوعًا بالفعل الذي بعد أنْ على أنه فاعل له، فـ " الأمم" فاعل لـ " تَدَاعَي "، والمصدر المؤول "أنْ تَدَاعَي" في محل رفع فاعل لِـ " يُوشِك "، فتكون "يُوشِك" تامّة استغنت عن الخبر[٤].

٢- ذهب المبَرِّدُ، والسِّيرَافِيُّ، والفَارسيُّ: إلى جواز أن تكون عسى تامة، كما قال الشلوبين، وجواز وجه آخر، وهو: أن يكون الاسم الظاهر الذي بعد (أَنْ) والفعل مرفوعًا على أنه اسمٌ مؤخر، والمصدر المؤول في محل نصب خبر مقدّم، وفاعل

---

(١) بدليل رواية " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ من كل أفق" [مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦١/٩ حديث رقم ٢٢٣٩٧، جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي ٢٨١/٢٤ ، إطراف المُسْنِد المعتلي بأطراف المسند الحنبلي ٦٧٠/١ حديث رقم ١٣٥٧] .

(٢) لسان العرب ١٤/ ٢٦٢ (دعا) ط: دار صادر – بيروت .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦١/٩ حديث رقم ٢٢٣٩٧ .

(٤) وعلى ذلك فلا يُؤتى بضمير في الفعل إذا كان الفاعل مثنًى، أو جمعًا؛ فتقول: عسى أن يقومَ الزيدانِ، وأوشك أن يقوم الزّيدون؛ لأن الفعل رفع الاسم الظاهر الذي بعده. [الأجوبة الجَلِيَّة ١٧٠/١ بتصرف] .

الفعل ضمير يعود على الاسم الظاهر[١]، وفي إيثار المصدر المؤول على المصدر الصريح دلالات عدة، منها أن يتأتى التعبير بالمضارع الذي يفيد التجدد والحدوث[٢]، وهذا يتطلب اليقظة المستمرة من المسلمين للتصدي له ومقاومته، كي تستمر لهم العزة التي أضافها الله إليهم في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣].

ولما كان هذا التداعي سيحدث في المستقبل القريب، وهو غير واقع في الزمن الحاضر، كان الظاهر أن يعبر بالسين أو سوف، لكنه ﷺ آثر الفعل "يُوشِك" الدال على شدة القرب؛ ليكون الخبر أشدَّ تأثيرًا، وأوقع في العظة، مما يوحي بجلال الحدث.

والرسول ﷺ يخاطب أصحابه، ويخبرهم بما سيحدث لأمته في المستقبل القريب، ومع أنَّ الحدثَ سيقعُ على طائفةٍ ليست موجودةً وقت الخطاب؛ لأنَّ الموجودين أدلة نورانية على تطبيق شرع الله تعالى، لكن يُلحظ التعبير بضمير المخاطب "عَلَيْكُم"، وفي رواية: "عَلَى أُمَّتِي"[٤]، وذلك إشارة منه ﷺ إلى الاتصال الوثيق بين حاضر هذه الأمة ومستقبلها، وأنَّ المسلمين يدٌ واحدة، وجسدٌ واحدٌ على مرِّ العصور.

ولما كانت الوظيفةُ الرئيسةُ للبيان النبوي هي التوضيح والكشف، كان التشبيه الذي يمثل ركنًا أساسيًّا في البلاغة هو الأَعْوَنُ على ذلك، والأقدر عليه من صور

---

(١) وجاز عَوْدُه عليه – وإنْ تأخَّر لفظاً – لأنه مُقَدَّمٌ في الرتبة، و" يُوشِك " في مثل هذه الحالة تكون ناقصة، وعلى هذا الرأي يُؤْتَى بضمير في الفعل الذي بعد أَنْ؛ لأن الاسم الظاهر الذي بعده ليس فاعله، بل هو اسم " يُوشِك "؛ فتقول: يُوشِك أَنْ يقوما الزيدان، ويوشك أَنْ يقوموا الزّيدون ... وإلحاق الضمير بالفعل في التثنية، والجمع، والتأنيث، وعدم إلحاقه به هو فائدة الخلاف في هذه المسألة (الأجوبة الجَلِيَّة لمن سأل عن شرح ابن عقيل على الألفيَّة ١/١٧٠).

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ص ١٧٤ ، مفتاح العلوم ص ٣٠٨ ، شروح التلخيص ٢/٢٧ .

(٣) سورة المنافقون من الآية ٨ .

(٤) المعجم الأوسط للطبراني ٧/١٨٠ حديث رقم ٧٢١٥ ، ط : دار الحرمين – القاهرة .

البيان العربي، فجاء قوله ﷺ :" كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا "، وفي رواية " كَمَا تَدَاعَى الْقَومُ على قَصْعَتِهم "(١)، وفي رواية ثالثة " كَمَا تَدَاعَى عَلَى الثَّرِيْدِ أكلته" (٢)، وفي رابعة "كَمَا تَتَدَاعَي عَلَى القَصْعَةِ أَكَلَتُها"(٣)، وهنا يُلْحَظُ قدرته ﷺ الفائقة في استخدام الصور الفنية التي تُسْهم في توصيل المعني، وتقريبه للأذهان، حيث استخدم التشبيه بطريقة مُثْلي، فجسَّم الحقائقَ من خلاله، وساق المعني في إطار وصفي، ينقل الفكر من صورة إلى صورة إحداهما ستقع في المستقبل القريب، والأخرى واقعية ومستمدة من واقع البيئة العربية، وكلتاهما تقرب المعنى، وتمزجه بحنايا القلوب .

والمتأملُ في صياغةِ هذا التشبيه يجدُ أنَّ عناصرَه مختارةٌ بعنايةٍ فائقةٍ، فالمُشَبَّهُ يُشبه المشبَّه به في الفعل والصورة، فالمُشَبَّهُ دعوةُ الأمم بعضها بعضًا على المسلمين، والمُشَبَّهُ بهِ دعوةُ الأَكَلَةِ بعضهم بعضًا إلى الطعام، ونلحظُ أنَّ التشبيهَ في حدِّ ذاته لم يأت – كما هو الحال في الشعر مثلا – وليدَ الخيال، ولكنه جاء لتصوير حقيقة ستقع لا محالة، وقد تضافرت الظاهرة البيانية مع السياق اللغوي الداخلي المتمثل في التراكيب التي جاءت فيها هذه الظاهرة في إبراز خاصية الإحكام والدقة اللذين يؤديان وظيفتهما في التمكين للغاية، والتحول بالأسلوب إلى إنتاج دلالة الطلب، ومن ملامح هذه الدقة، وذلك الإحكام ما نلمسه من التوافق اللفظي والدلالي في الفعل "تَدَاعَي" في الموضعين، وهو ما جعل الانتقال من المُشَبَّهِ إلى المُشَبَّهِ بهِ

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، بتقديم أ.د/ أحمد معبد عبدالكريم ٧٤/٨ حديث رقم ٧٥٠٦ باب: ما جاء في إبليس وجنوده، وحب الدُّنيا وكراهية الْمَوْتِ، ط: أولى دار الوطن – الرياض ١٤٢٠هـ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٧ / ١٨٠ حديث رقم ٧٢١٥ .

(٣) مسند الشاميين للطبراني ٣٤٤/١ حديث رقم ٦٠٠ .

سهلًا وميسورًا، إذْ النفسُ تألفُ المُعادَ والمُكررَ؛ ولا نغفل دور الإيقاع الصوتي الناتج من هذا التزاوج، والذي ظهر أثره في وضوحِ المعنى وسهولةِ الحفظ، ومن ذلك أيضا اختيار "الكاف" التشبيهية دون " كَأنَّ " أو "مِثْل" إذْ الغرضُ تقريبُ صورة المُشَبَّهِ في الذهن، وتوضيح شناعتها في نفوس المسلمين، كي ينزجروا عن الأسباب المؤدية إلى ذلك، فليس المراد تقوية الشَّبَهِ بين الطرفين فتستعمل " كَأنَّ "، ولا التسوية بينهما فتأتي "مِثْل"، ولهذا كانت كافُ التَّشْبيهِ هي الملائمةُ والمناسبةُ لسياقِ الكلام، واستعمال الكاف في التشبيه كثير[١] .

ويُلحَظُ صنعة شريفة في النَّظْمِ تدلُّ على إحاطته ﷻ باللغة، حيث أتى بـ "ما" داخلة على الكاف، والمعني صحيح ومفهوم من دونها، لكنَّه جيء بها لتهيئة الكاف لدخولها على الجملة الفعلية، حتى لا يرد الأسلوب في ظاهره دخول حرف الجر على الفعل، و"ما" هنا مصدرية حيثُ تُقَدَّر هي مع الفعل بعدها بمصدر كقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾[٢]، ﴿كَمَآ أَرسَلنَا فِيكُم رَسُولا﴾[٣]، أي كإيمان الناس، وكإرسال الرسل، قال "الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) عن "ما": وَكُلَّمَا أَتَتْ بَعْدَ كَافِ التَّشْبِيهِ أَوْ بِئْسَ فَهِيَ مَصْدَرِيَّةٌ عَلَى خِلَافٍ فِيهِ، وَصَاحِبُ الْكِتَابِ يَجْعَلُهَا حَرْفًا، وَالْأَخْفَشُ يَجْعَلُهَا اسْمًا وَعَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ لَا يَعُودُ عَلَيْهَا مِنْ صِلَتِهَا شَيْءٌ "[٤].

ومن ذلك أيضا التعبير بالمضارع في طرفي التشبيه، مما يعينُ على تمكن الحدث في الذهن، فيبدو هذا التآخي والترابط بين أركان هذه الصورة البلاغية، وفي الانتقال

---

(١) البرهان للزركشي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٠٨/٢ ط :أولي- دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة من الآية ١٥١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٠٨/٤ .

من الطرف الأول إلى الثاني زيادة توضيح وتقرير، وقد تضمن التعبير من المحسنات البديعية ما يزيد المعني وضوحًا والأسلوبَ جمالًا، ومن ذلك المزاوجة[١] بين "تَدَاعَى" المُكرر، ومع هذا التكرار الذي قرب موضعه فإننا لا نلحظُ صعوبةً في النُّطق، بل أعطى التعبير سهولةً وقوةً وتلاحمًا، وجعل الكلامَ منثورًا نثرًا أدبيًّا به موسيقى وحسن إيقاع، فبدا التناسب بين التراكيب، والدقة والإحكام في الألفاظ التي بدا حسن توزيعها واضحًا.

ومن ذلك اختيار لفظ "الْأَكَلَةُ" بفتحتين جمع آكل[٢]، وهو وصف صحيح الآخر، فجمعه على "فَعَلَه" جمع كثرة، مثل: سافر وبار، قال ـ تعالى ـ :﴿بِأَيدِي سَفَرَةٍ١٥ كِرَامِ بَرَرَةٍ١٦﴾[٣]، يُقَالُ: "أَكَلَ الطَّعَامَ يأْكُلُه أَكْلًا فَهُوَ آكِل والجمع أَكَلَة "[٤]، والتعبير به يوحي بكثرة الآكلين وتنوعهم واختلاف بيئاتهم، كما يوحي بشدة الجشع، وعدم القناعة والرغبة في الالتهام من جهة، كما يصور العجلة في التناول، والحرص على التهام أكبر قدر ممكن من جهة أخرى، وهذا يتلاقى مع التعبير بجمع الكثرة أيضا في جانب المشبه (الأمم) من جهة.. وما فيه من التخويف والدعوة إلى التأهب والاستعداد من جهة أخرى، ولفظ "القَصْعَةِ" بما يشيعه من لذَّة في التناولِ، يتناسبُ مع لفظ "الأَكَلَةِ"، وإضافة القَصْعَةِ إلى ضمير الأكلة يزيد من شدة الجشع؛ وكأنها

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ص١٧٥، الكشاف للزمخشري ٦٤٤/٢، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي، ص١٧١، ١٧٢ ط: أولي دار صادر – بيروت ٢٠٠٤م.

(٢) وفي رواية للإمام أحمد في مسنده (الآكلة) بوزن فاعلة بالمد، وهذه الرواية على نعت الفئة والجماعة أو نحو ذلك، والرواية في حديث رقم ٢٢٤٥٠، ط: مؤسسة قرطبة – القاهرة – غير مؤرخة.

(٣) سورة عبس الآيتان ١٥ ، ١٦

(٤) لسان العرب ١٩/١١ (أكل)، ط: دار صادر .

أُعدت لهم، وهم كفيلون بها[١]، فهم "يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعَ وَلَا مُنَازِعَ فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْوًا، كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ، أَوْ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ أَوْ بأس يمنعهم"[٢]، وقد أفاد التشبيهُ بيانَ حالِ المُشَبَّهِ، حيث تمكَّن الذهن من إدراك المُشَبَّهِ وتصوُّره، وقد أدى التشبيهُ إلى كنايةٍ بلاغيةٍ لطيفةٍ تنمُّ عن كثرة الأمم التي تتداعي على المسلمين، وهي مع كثرتها تتصف بالشدة والقسوة، ولعلنا ندرك جمال التعبير النبوي عندما نقارن بين ما جاء عليه النظم الشريف، وبين أنْ يقال: سوف تتداعي عليكم الأمم بسبب ضعفكم – في الطرف الأول من التشبيه – إذ لو جاء التعبير هكذا على مجرد الإخبار بتداعي الأمم على المسلمين وأسبابه، لما أفاد هذه الإفادة التي خلعها البيان النبوي، ولما كان للأسلوب هذا التأثير الذي يحسه من له أدنى ذوق، وكذلك قوله . في الطرف الثاني . : " كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا" لو قيل: كما يتداعى الآكلون إلى القِصَاعِ، لما صوَّرَ هذا التعبيرُ شراهةَ هؤلاء الأَكَلَة، ونهمهم وحرصهم الشديد على التهام كل ما تحويه القصعة، حتى لا يظل فيها شيء، واللذة والمتعة في الأكل، فالإفراد والإضافة في "قَصْعَتِهَا" زاد من النَّهم والشراهة، فهي قصعةٌ واحدة، ومن فاته الأكل منها فقد فاته الخير، وأمَّا الإضافةُ فمن دلالاتها هنا التعظيم لشأن هذه القصعة، ومن هنا تولَّد الحرصُ من الأَكَلَةِ جميعهم على التهامها، وكأنها اختصت بهم، فهذا التعبيرُ يُصَوِّرُ مدي تكالب هذه الأمم على المسلمين، وحرصهم على إضعافهم، وإبقائهم عبيد إحسانهم، واستحلال أموالهم، و"أل" في "الأَكَلَةِ" للعهد

---

(١) كما أن في التعبير بإضافة الأكلة إلى قصعتهم ما يوحي بتملكهم لها وأنهم أصحابها، وهذا يتلاقى مع تداعي الأمم على الأمة الإسلامية وما ينطوي عليه باطنهم من اعتقادهم أنهم الأولى والأحق بهذه البلاد وأنهم أصحابها، وهذا ما حدث فعلا أثناء الاستعمار الذي اجتاح البلاد العربية والإسلامية (من تعليقات أستاذنا الدكتور/ محمد أحمد أبو نبوت (مُحَكِّمُ البحث).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٢/١١ ، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (ت:١٠١٤هـ) ، ٣٣٦٦/٨ ، ط: دار الفكر– بيروت – لبنان، ط: الأولى١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

الذهني، إذْ لا يُراد بمدخولها أفرادًا بأعيانهم، وإنَّمَا المرادُ كُلَّ مَنْ كانت هذه صفته، حيث اختصوا بها ومهروا فيها، ويُلْحظ أنَّ الفعلَ "تَدَاعَي" هنا قُيّد بحرف الجر"إلى" لبيان الغاية، والتعبير بالقصعة دون غيرها له عدة دلالات، أهمها الإشارة إلى عظم ما يمتلكه المسلمون من ثروة، إذْ القصعةُ في مدلولها اللغوي تعني "القَصْعةُ الضَّخْمةُ تشْبع الْعَشْرَةَ، وَالْجَمْعُ قِصاعٌ وقِصَعٌ"(١)، وعلى الرغم من امتلاك المسلمين لهذه الثروة فهم لا يحسنون استخدامها، ولا يجيدون المحافظة عليها، ومن ثَمَّ وجدنا الغربَ يتهمُ المسلمين بأنهم لا يحسنون استغلال ما في أيديهم من الثروات، ولذا فهم يستحلونها، ويحرصون على سلبها وحرمان المسلمين منها .

وآثر النَّبِيُّ التعبير بـ القَصْعَة دون الجَفْنَةِ؛ لأنَّ "القَصْعَةَ وعاءٌ يُؤكل فيه ويثرد، وكان يُتخذ من الخشبِ غالبًا، أمَّا الجَفْنَةُ فهي وعاءٌ يُصنعُ من الخزف الصيني(٢)، فالجِفَانُ دليلُ الرفاهية، قال ـ تعالى ـ في شأن تسخير الجن لسيدنا سليمان :﴿يَعمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَان كَٱلْجَوَابِ﴾(٣).

واستهلالُ الحديثِ بهذه الجملة " يُوشِكُ ... قَصْعَتِهَا" يحملُ عدَّة معان يدركها صاحب النظر الثاقب، فقد أراد ﷺ أنْ يستحوذَ على مشاعر السامعين؛ لأنها تفيد أنه ﷺ رأى تداعى الأمم على المسلمين رؤية واضحة جلية من خلال استشرافه ﷺ للمستقبل، كما أنه ﷺ أراد لفت الأذهان إلى سبب هذا التداعي، والحث على أخذ الحيطة والحذر والاستعداد له، والعمل على أخذ العُدَّةِ والتصدي له ومواجهته، فهذه الجملة المقدمة لها أثرها الواضح في استحضار ذهن المتلقين، وإثارة انتباههم،

---

(١) لسان العرب ٨/٢٧٤ (قصع) .

(٢) المعجم الوجيز– مجمع اللغة العربية – تقديم: د/شوقي ضيف، ص٥٠٥ ط: وزارة التربية والتعليم ٢٠٠٣م.

(٣) سورة سبأ من الآية ١٣ .

وتوجيه حواسهم نحو السبب الذي سيؤدي بالمسلمين إلى هذا الذل وهذا الهوان، فالأسلوبُ الخبريُّ التقريري هنا يعتمدُ على تحقيق أبعاد نفسية عند المتلقين فتشكل لهم حضورًا ذهنيا بالتوجه والبحث عن الأسباب المؤدية لذلك، وهو ما أراده ﷺ، ومن هنا فالأسلوبُ الخبريُّ لا يقفُ عند حدود المعني الحرفي للملفوظ اللغوي، بل يتجاوز ذلك إلى إنتاج دلالة التحذير والاستعداد لهذا التداعي، ومن هنا جاء سؤال السائل الذي هاله أمر الخبر" وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟".

وفي الأسلوبِ الخبريِّ هنا إشارةٌ إلى حُبِّه ﷺ العميق لجميع أفراد أمته، الأصحاب منهم والأحباب، أعني من عاصره ﷺ وآمن به، ومن آمن به ممن آتى بعده إلى يوم القيامة، ويبرز حُبُّه ﷺ في التحذير المبكر لأبناء المسلمين في مختلف العصور من أن يفترفوا من الأفعال ما يؤدي بهم إلى هذا الضعف الذي يغري غيرهم من الأمم فتتداعي عليهم .

فالرسول ﷺ استهل أسلوبه الخبري بالفعل "يُوشِك " وهو مضارع "أَوْشَكَ" الدَّال على المقاربة، ولما كانت المقاربةُ هنا تعني اقتراب الحدث المخبر عنه، وأنَّه أمر جلل كان تحذير الرسول ﷺ منه بهذه الصورة المزرية التي يحرص كل مسلم بحق أن ينأى بنفسه عن أن يكون طرفًا فيها، ولنا أن ننبه إلى دلالة الفعل "يُوشِك" هنا على التجدد الدائم للتحذير، فهو تحذير تتناقله الأجيال من المسلمين، ليظل الفعل على مر الأجيال وتعاقبها تحذيرًا دائمًا من الأسباب التي تؤدي إلى هذا الهوان والضعف، فينبغي ألا يفوتنا أيضًا أنَّ الأمرَ المُحَذَّرَ منه في الجملة الاستهلالية من الأمور التي لم تتحقق في زمن معاصري النبي ﷺ، ولكنه ﷺ لن يعيش إلى الزمن الذي ستحدث فيه هذه الملمة بالمسلمين، ولذا جاء تحذيره مبكرًا للمسلمين من أنْ يقترفوا الأفعال التي تؤدي بهم إلى هذه النتيجة المهينة، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا أدركنا دلالة القرب هنا على أنها ليست قربًا زمانيًّا، وذلك بأنْ يكون المقصودُ هو وقوعُ أحداثٍ قريبةٍ من هذا الموقف على سبيل التشبيه، أي أنَّ المهانةَ ستصلُ بكم إلى درجةٍ

قريبةٍ من هذه الدرجة المُهينة التي تجعلكم مجرد وليمة سهلة تدعو الأمم بعضها بعضا لينالوا منها، وهي لا تبدي مقاومة تذكر، ولا حول لها ولا قوة تدفع بها عن نفسها آثار هذه المهانة، فتداعي الأمم على المسلمين يعد مظهرًا من المظاهر التي ستلحق بالمسلمين في وقت قريب من ضعف وهوان، متسببًا عن حب الدنيا وكراهية الموت.

فالرسول ﷺ بروعة تصويره، وفطنته العالية، وبلاغته السامقة أبان عن ذلك الضعف والهوان بما قدمه إلينا من لافتات، تحملُ الدلالات وتومئ بالإيحاءات، وعلى هذا فالأسلوبُ قائمٌ على الرمز في العبارة، فالإشارة تغني عن العبارة، والتلويح ينوب عن التصريح والقول المكشوف، مما فيه من إثارة للفكر، وتنشيط للعقول، أما إنْ حُمِل الأسلوبُ على ظاهره، فإنه يمكن حمل الغرض منه على التسلية للمسلمين حال تداعي الأمم عليهم، لئلا يُفتنوا بقوة التداعي، بل عليهم أنْ يعلموا أنهم على الحق، وإنْ وقع عليهم التداعي وقوي واشتد، ويؤيده قوله ﷺ في حديث آخر: "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"(١)، فالطريقُ أمام الأحباب ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنَّمَا مملوءٌ بالمصاعب والشدائد كما كان أمام الأصحاب.

ومن نبراس بلاغته ﷺ عند بيان بشاعةِ جرم قد يقترفه الإنسان لما له عواقب وخيمة، وأضرار جسيمة يقدم في كلامه ما يحيق به من الضرر، وما يحل به من الأذى، فقد كشف ﷺ عما يحيق بالمسلمين نتيجة حبهم الدنيا وكراهية الموت، وهو مخالفة لمنهج الله وشريعته، فالتقديمُ البلاغيُّ في أسلوبه واضحٌ، حيث قدَّم العقوبةَ المترتبةَ على المخالفة، قبل أنْ يبين عن المعصية التي استحلت، وفي هذا التقديم لفتةٌ مُثيرةٌ تثيرُ العواطف الإنسانية؛ لِمَا فيه من ذهابِ الكرامة الإسلامية، وهو ما

(١) سنن ابن ماجة ١٣١٩/٢ حديث رقم ٣٩٨٦ بَابُ: بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، ط: دار إحياء الكتب العربية.

يحفزها لأنْ تبتعد، وتتجنب الأسباب المؤدية إلى ذلك، إنها البلاغةُ النفسية التي تُهيئ القلوب لقبول التوجيه النبوي[١]، وتتخطى الأسباب التي من شأنها أنْ تُودي بحياة الناس، إذْ تُبْعدهم عن العقائد الدينية الحَقَّةِ، وتقربهم من الضلال والفساد.

(١) مستفاد من كتاب شرح أحاديث من صحيح البخاري لـ أ.د/ محمد محمد أبوموسي ص١٧٤ ، ط: الثانية مكتبة وهبة القاهرة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م .

المبحث الثاني

حوار النبي ﷺ مع من يسأل عن أسباب ضعف الأمة .

ثم جاء سؤال السائل الذي هاله أمر الخبر الذي استهل به ﷺ هذا الحديث، وجاء السؤال بحثًا عن السبب الذي سُيؤدي بالمسلمين إلى هذا الذُّلِّ والهوان، كما جاء هذا السؤال مُتَضمنًا التصور الذي تبادر إلى ذهن السائل عن السبب الذي يمكن أنْ يكون وراء هذا الضعف، فقول الراوي: "فَقَالَ قَائِلٌ "[1]، العطف بالفاء يوحي بسرعة السؤال عقب سماع الخبر، وهذا يبرزُ مدي وقع المعني المتصدر للحديث على نفس هذا الصحابي، كما يبرزُ مدي اهتمام الصحابة بالسؤال عما يدور في صدورهم؛ لأنَّ السؤالَ نصفُ العلم كما يقولون، ويُلْحظُ أنَّ الروايات لم تُعَيِّن اسمَ القائل، وكأنَّ المهمَّ في الكلام ما في السؤال من البيان، أَمَّا تعيينُ السائل فلا أهمية له، ولا حاجة للناس به، وهذا المسلك في لغة العرب حميد؛ لأنَّ الأمرَ إذا تعلق بالاسم فلابد من إظهاره وتعيينه، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ :﴿وَمَرِيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾[2]، وتأمل الكلامَ فإنَّك ترى أنَّ السؤالَ هو المقصودُ، وما فيه هو المراد، ولذلك جاء في رواية " قِيلَ: يَا رَسولَ الله فَمِن قِلةٍ يَومَئذٍ ؟"[3]، وفي رواية للإمام أحمد " قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟)[4] بإسناد قول البعض وهو أحدهم إلى الكل، كما

---

(١) وفي رواية "قيل" [المعجم الكبير للطبراني ١٠٢/٢ حديث رقم ١٤٥٢].

(٢) سورة التحريم من الآية ١٢ .

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠٢/٢ حديث رقم ١٤٥٢، شعب الإيمان للبيهقي ٢٩٧/٧ حديث رقم ١٠٣٧٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٨٢/٣٧ حديث رقم ٢٢٣٩٧ باب: من اسمه ثوبان ط: مؤسسة الرسالة .

في قوله ـ تعالى ـ :﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾[١]، فهو من المجاز العقلي لعلاقة إسناد فعل البعض إلى الكل، وهي إحدى العلاقات التي أهملها الخطيب وذكرها "الزمخشري(ت: ٥٣٨هـ)"[٢]، وترجع بلاغة المجاز هنا إلى الدلالة على أنَّ هذا السؤالَ كان متوقعًا من كل فرد منهم، فبادر به أحدهم، وهذا يكشفُ حرصَ الصحابة على تحصيل البيان، وجاء تقديم النداء على السؤال كي يلفت الأنظار، ويستحث النفس على الانتباه لما بعده، مستخدمًا "يا" التي لنداء البعيد غالبا، وهو حاضر معه جالس أمامه يستمع إليه، ويسمع منه ويحاوره، تعظيمًا لشأنه ﷺ، تنزيلًا لبعد المنزلة منزلة البعد المكاني، وإنَّمَا ناداه بوصف الرسالة؛ لأنَّ الصحابيَّ أراد البيان منه ﷺ، والبيان والتوضيح من مفردات الرسالة التي أمر الله نبيه ﷺ تبليغها إلى الناس، قال ـ تعالى ـ :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٣]، والإضافة في "رَسُول اللهِ" تفيد التشريف، وقد كان الصحابة لا ينادونه إلا مضافًا إليه تشريفًا وتعظيمًا، فالصحابي ناداه بـ: "يَا رَسُولَ اللهِ" ولم يناده باسمه كرامةً له وتشريفًا، وربئًا بمحله وتنويهًا بفضله[٤]، وآثر لفظ "رَسُول" على "نبي"؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تعليم يقتضي الوصف بالرسالة دون النبوة، وفي ذكر لفظ الجلالة استحضارٌ للعظمة الإلهية، وإيحاءٌ بأنه في معية الواحد الأحد.

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٧٧، قال صاحب الكشاف: (أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلا واحد منهم) الكشاف ١٢٣/٢ .

(٢) ينظر: الكشاف ١٢٣/٢ ط: الثالثة دار الكتاب العربي – بيروت١٤٠٧هـ .

(٣) سورة المائدة من الآية ٦٧ .

(٤) الكشاف ٥١٢/٣ ، ط: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط: ثالثة ١٤٠٧هـ .

وقول الصحابي: "يَا رَسُولَ اللهِ" تعبيرٌ يكشفُ عن صدق الاعتقاد في التصديق له ﷺ بالرسالة، وتمام الاعتراف لله بالوحدانية، وهو أدبٌ عظيمٌ من الصحابة ينبغي أنْ نتحلى به في سلوكنا مع مَنْ نتعلم منهم، فلا نناديهم بأسمائهم اقتداء بالصحابة الكرام .

وصيغة السؤال في رواية أبي داود "وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟" بحذف همزة الاستفهام كقوله ﷺ لجبريل عليه السلام " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ"(١) أراد : أو إنْ زني وإنْ سرق(٢)، والهمزةُ هنا لطلب التصديق؛ لأنَّ المسئولُ عنه هو النسبة، وهي معني قائمٌ بين طرفيها، فلا يصورها لفظ بعينه، فإذا أجيب بـ "نعم" حصل التصديق بوقوعها، وإذا أجيب بـ " لا " حصل التصديق بعدم وقوعها، فالصحابيُّ الكريمُ لا ينكر تداعي الأمم على المسلمين؛ لأنَّه إخبارٌ من الصادق المصدوق، وإنما يسأل: أتكون القلة وراء هذا التداعي؟ فقوله "وَمِنْ قِلَّةٍ" خبر مبتدأ محذوف، وَقَوْلُهُ "نَحْنُ يَوْمَئِذٍ" مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ صِفَةٌ لَهَا أَيْ أَنَّ ذَلِكَ التَّدَاعِيَ لِأَجْلِ قِلَّةٍ نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ(٣)، وفي رواية "فَمِنْ قِلَّةٍ يَوْمَئِذ"(٤) بفاء العطف بدل الواو، وفي رواية

---

(١) من حديث أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي – أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي – أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ" قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» (صحيح البخاري بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ برقم ١٢٣٧) .

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تح: د/ فخر الدين قباوة ، والأستاذ/ محمد نديم فاضل ، ص٣٥ ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ط:١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٣/١١ ، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٦٦/٨.

(٤) كنز العمال للمتقي الهندي، تح: بكري حياني – صفوة السقا ١٣٢/١١ حديث رقم ٣٠٩١٦ " الفصل الثاني "في الفتن والهرج " ط: مؤسسة الرسالة ، ط خامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الإمام أحمد بن حنبل "أَفمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟"[١] بثبوت الهمزة والعطف بالفاء، "وكان الأصل في ذلك تقديم حرف العطف على الهمزة، لأنها من الجملة المعطوفة، لكن راعوا أصالة الهمزة، في استحقاق التصدير، فقدموها "[٢]، والمراد بالقلة هنا قلة العدد، والباء في" بِنَا " للمصاحبة، والتنوين في "يَوْمَئِذٍ" عوضٌ عن جملة[٣]، والتقدير : أقليلون عددًا يوم تتداعي علينا الأمم، فالصحابيُّ أوجز في كلامه، إشعارًا منه بكراهته لهذا التداعي لفظًا ودلالةً، فصان لسانَه عنه، وحفظ تعبيره منه، وهذا إنْ دَلَّ فإنَّمَا يدلُّ على مدى تأثره بالخبر، انطلاقًا من مبدأ: مَنْ لَمْ يهمه أمر المسلمين فليس منهم .

وانظر إلى جواب الرسول ﷺ الذي جاء ناقضًا التصوُّرَ الذي تبادر إلى ذهن السائل، "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ" في رواية أبي داود، وعند " البيهقي " أنَّه ﷺ قال " لَا "[٤]، وعلى الرغم من النقض بالإضراب عن كون قلة العدد هي الفاعلة فيما سيكون عليه أمر المسلمين من الهوان والضعف، وعلى الرغم مما ينتجه الإضراب من دلالة النفي للقول السابق، فإنَّ التعليلَ السياقي هنا يكشفُ عن أنَّ كلامَ السائل يدخلُ في بنية الحديث التركيبية لهذا الإضراب، فنقض الشيء لا يعني عدم وجوده، ولكنه يعني عدم صلاحيته، وبهذا تحمل كلمة " بَلْ " هنا دلالة النفي الصريح من الرسول ﷺ أنْ تكون القلةُ هي سبب هذا الضعف والهوان، وكأن لسان الحال والسياق هنا ينطق بأنَّ الرسولَ ﷺ نَبَّه إلى أنَّ ذلك الضعفَ لن يكون عن قِلَّةٍ، وبذلك تكون دلالةُ القِلَّةِ

---

(١) مسند الإمام أحمد ٨٢/٣٧ ، باب: ومن حديث ثوبان ، حديث رقم ٢٢٣٩٧.

(٢) الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص ٣١.

(٣) كقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَيَومَئِذ يَفرَحُ ٱلمُؤمِنُونَ ﴾ أي ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله ـ عزّ وجل ـ من غلبتهم يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ٠[الكشاف للزمخشري ٤٦٧/٣].

(٤) شعب الإيمان للبيهقي ٢٩٧/٧ حديث رقم ١٠٣٧٢

المنفيةِ هنا حاضرةً في تأثير دلالة الكثرة المنطوق بها من رسول الله ﷺ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ" وبذلك يأتي الإضراب عن السبب الذي تلفظ به السائل خبرًا ضمنيًّا في أسلوب هذا الحديث.

وجاء قوله: "أَنْتُم" لزيادة الإيضاح والتقرير، بينما جاء قوله: "يَوْمَئِذ" لمجاراة السائل، و"كثير" خبر أنتم، والمراد هنا كثرة العدد وفقدان القيمة، وفي رواية " قَالَ: لَا وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ ..."[1]، و"لَا" هنا جوابية نقيضة "نعم" وهي نائبةٌ مناب الجملة، إذ التقدير: ليست القلة هي السبب، ففي الجواب بها إيجاز، وقبل أنْ تذهبَ الدَّهْشَةُ بالمتلقي مذهبها يبادره الرسول ﷺ بنقض آخر ينفي فاعلية هذه الكثرة المثبتة، والمنطوق بها، بقوله: "وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ"، والغُثَاءُ: بِالْمَدِّ وَالضَّمِّ، مَا يجيءُ فوقَ السيلِ مِمَّا يَحْمِلُه مِنَ الزَّبَدِ والوَسَخِ وَغَيْرِهِ[2]، فلما نفى ﷺ القلة وأثبت الكثرة، استدرك ذلك أنْ يكون لهذه الكثرة أثر يذكر، فجاء بخبر "لكن" بقوله: "غثاء"، ثم زاد المعني وضوحًا بهذا التشبيه الذي أذهب كلَّ حول وقوة عن هذه الكثرة، فهي كثرةٌ نَعَم، ولكنها كثرةٌ مسلوبةُ القيمة منزوعةُ الإرادة .

وبالتأمل في التركيب النحوي للتشبيه نجد المُشَبَّهَ به جاء خبرًا مُبَاشِرًا "وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ" ثم زاد التشبيه إيضاحًا لبيان الغثاء بتكراره بعد أداة التشبيه وإضافته إلى السيل " كَغُثَاءِ السَّيْلِ"، أي: ما ينجرف مع السيل، أو هو تلك الفقاقيع التي تظهر على سطح الماء المجتمع عندما ينزل عليه بعض السيل، أو ما يحمله السَّيل من رغوة ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض كما تقول بعض المعاجم[3]، وفي كل الأحوال يأتي التشبيه بهذا الغثاء دالًا على الهوان، وفقدان القوة والقيمة معًا، وبهذا

---

(١) كنز العمال ، ١٣٢/١١ حديث رقم ٣٠٩١٦ (الفصل الثاني "في الفتن والهرج").

(٢) لسان العرب ١١٦/١٥ (غثا).

(٣) الصحاح للجوهري ٢٤٤٣/٦ (غثا)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة ١٥٩٥/٢ (غ ث و).

التشبيه تتفرغُ دلالة الكثرة من مضمونها لتصبح مجرد كثرة عددية، مسلوبة القدرة على الدفاع عن نفسها، والمحافظة على وجودها، قال "الطيبي(ت:١٠١٤هـ)": " شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ، وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ، وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ، وَخُلَاصَتُهُ: وَلَكِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ، ضَعِيفِي الْحَالِ، خَفِيفِي الْبَالِ، مُشَتَّتِي الْآمَالِ"(١)، وتشبيه المسلمين يومئذ بغثاء السيل يوحي بأنهم أراذل الناس وسقطتهم، وأنهم مرضي القلوب لبعدهم عن منهج الله، وهو موجود في دلالة المادة اللغوية، إذ من معاني "الغُثَاءُ الهالِكُ الْبَالِي مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ الَّذِي إِذَا خَرَجَ السيلُ رأَيته مخالِطًا زَبَدَه"(٢).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٦٦/٨ .

(٢) لسان العرب ١١٦/١٥ (غثا) .

المبحث الثالث

بيان النبي ﷺ للأسباب الحقيقية لضعف الأمة .

هذا وبَيْن الإضرابُ عن سبب الضعف الذي استفهم عنه السائل، والتأكيد على نقضه ونفيه من جانب، والاستدراك الذي تضمنه التشبيه الدال على نفي فاعلية الكثرة من جانب آخر تشتدُّ حاجة المتلقي إلى معرفة السبب الحقيقي لهذا الهوان والضعف، وبذلك استجمعت البلاغة النبوية أسباب التشويق، وجذب الانتباه إلى السبب الحقيقي وراء هذا الهوان والضعف، عندها أخذ رسول الله ﷺ في بيان الصفات التي سيكون عليها المسلمون عندما يدركهم الضعف والهوان، فذَكَرَ السَبَبَ بِعَطْفِ الْبَيَانِ، فقال: "وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ..." أَيِ: الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ مِنْكُمْ أَيْ: مِنْ جِهَتِكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ أَيْ: وَلَيَرْمِيَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، أَيِ: الضَّعْفَ[1].

ولعل التوكيد هنا هو أظهر ما يبادرنا من بلاغة التركيب، فقد جاء الفعل المضارع مسبوقًا باللام الموطئة للقسم، ومزيلًا بنون التوكيد في قوله ﷺ" وَلَيَنْزَعَنَّ... وَلَيَقْذِفَنَّ" ومع تحقق دلالة الاستقبال في أسلوب القسم يأتي تحقيق الوقوع الذي لا يدع مجالًا للشك في نفوس المتلقين، فهو خبر من الصادق المصدوق ﷺ الذي شهد له أعداؤه بذلك، ومن ثم يأتي التساؤل عن سبب تعدد التأكيد، والحال أنَّ المتلقين من المسلمين المؤمنين بنبوته المصدقين له ﷺ، إذ من المعروف عند البلاغيين أنَّ المتكلمَ يلجأُ إلى التأكيد عندما يكون المخاطب شاكًّا في الخبر الملقي إليه أو منكرًا له[2]، ولكن حقيقة الأمر هنا تتجاوز هذه الرؤية البلاغية، كما تتجاوز ما قاله

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٦٦/٨ .

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٢٥٩ ، الإيضاح تح: خفاجي ٦٩/١ ، عروس الأفراح للسبكي ، تح: د/ عبد الحميد هنداوي ١٢٣/١ ط: المكتبة العصرية بيروت – لبنان ط: الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

البلاغيون من إنزال خالي الذهن منزلة الشاك أو المنكر، لأنَّ الخبرَ هنا ليس من الأمور المحببة إلى النفس عند المتلقي، إذ هو خبرٌ عن ملمةٍ ستحلُّ لا محالة بالمسلمين، ومن ثم يأتي بعد الدهشة، أو قُلْ بعد عدم الرغبة في أنْ يكون هذا الخبر على سبيل الحقيقة، إذْ المتلقي هنا مدفوعٌ بعوامل نفسية عنيفة واقعة عليه، ورسولُ اللهِ ﷺ يعلمُ ذلك من حال المتلقي، ومن ثم يأتي هذا التأكيد على سبيل مراعاة حال المتلقي الذي ستختلط مشاعره أثر هذا الخبر.

والتعبير بالنزع له دلالته الخاصة، إذ من معاني النزع: الأخذ، والإخراج، والاقتلاع[١] ومن معانيه أيضاً "السَلْب"[٢]، وإسناده إلى الله ـ تعالى ـ إسناد حقيقي يدلُّ على عظمة الفعل لعظمة الفاعل، فإنَّ الأفعالَ تعظم بفاعلها، فكما أنَّ اللهَ هو الذي قذف المهابة – أَيِ: الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ – في قلوب الأعداء تجاه المسلمين عندما كانوا قائمين على أمر الله، هو الذي تولي بنفسه نزع هذه المهابة عندما ابتعدوا عن دينه وأمر رسوله، مما جرَّأ الأعداء عليهم وعلى الاستهانة بهم، وهذا إنْ دلَّ فإنَّمَا يدلُّ على أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وأنَّ النَّصْرَ بيد الله.

ومن الظواهر البلاغيةِ المثيرة للانتباه والواضحة في هذا التركيب ظاهرةُ المقابلة، وقد جاءت لبيان الفوارق الجوهرية بين حال المسلمين، وحال أعدائهم وقت حصول التداعي المخبر عنه في مستهل الحديث، فنزع المهابة من قلوب الأعداء يقابله قذف الوهن في قلوب المسلمين، والمقابلةُ هنا "ترقي عن هذا المستوي اللفظي، الذي يقوم

---

(١) كما في لسان العرب ٣٤٩/٨ (نزع) : نَزَعَ الشيءَ يَنْزِعُه نَزْعاً ... اقْتَلَعَه فاقْتَلَعَ ... وإن كَانَ عَلَى نَحْوِ الاسْتِلاب.

(٢) وهو الذي يكون بعد عطاء ، كما جاء في حديثه ﷺ :" وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ" فكما قذف الله المهابة والخوف والرعب في قلوب الأعداء، فهو الذي تولي نزع مهابة المسلمين من قلوبهم.

على التضاد بين المعاني اللغوية للكلمات والجمل، إلى مستوى أرحب من المفارقة التصويرية التي برز فيها التناقض بين المواقف والأفكار والأحداث"[١]، لذلك قالوا: وَاعْلَمْ أَنَّ فِي تَقَابُلِ الْمَعَانِي بَابًا عَظِيمًا يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ[٢] وزيادة نظر وتدبر، وَهُوَ يَتَّصِلُ غَالِبًا بِالْفَوَاصِلِ[٣]، والنتيجة اللافتة لهذه المقابلة هي تحريك وعي المتلقي، وتنشيط ذهنه لما بين الأشياء من تقابل أو تضاد، فتقبل على البليغ في يقظة شعورية لفهم المضمون المعبر عنه من خلال الصيغ المثيرة للانتباه والداعية إلى التأمل[٤]، ومن هنا كانت المقابلة في الحديث باعثة للمسلم على التفكير، والتأمل في أسباب هذا الضعف والهوان، ونلحظ في التركيب النحوي لهذه المقابلة أنَّ الفعلين (يَنْزِعَنَّ – يَقْذِفَنَّ) جاءا مسندين إلى ذات الله ﷻ ولا يمكن أن يكون ذلك إلا من اقتراف المسلمين ما يؤدي بهم إلى هذه النتيجة، ومن ثم تأتي المقابلة لها حضورها الذي لا ينكر في إنتاج دلالة التحذير من الأسباب التي تؤدي بهم إلى هذا الضعف والهوان، كما يُلْحَظُ تكرار لفظ الجلالة ووضعه موضع الضمير، إذ كان مقتضى الظاهر أنْ يقال: ولينزعن اللهُ من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهنَ، ولكنه عدل إلى لفظ الجلالة فوضعه موضع الضمير لبيان عظم هذه الأمور وتوكيدها بإضافتها إلى صريح الاسم الجليل.

---

(١) دراسات في المعاني والبديع ، د/ عبدالفتاح عثمان، ص ٢١٣، نشر مكتبة الشباب مطبعة التقدم، غير مؤرخة .

(٢) الفوائد المشوّق المنسوب لابن قيم الجوزية، ص: ٢٢٣، ط: دار الكتب العلميّة ط: ثانية ١٤٠٨هـ .

(٣) البرهان للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: الحلبي (دار إحياء الكتب العربية) ط أولى ١٩٥٧م.

(٤) ينظر: دراسات في المعاني والبديع، ص ٢١٢ .

وآثر البيان النبوي لفظ الجلالة "الله" دون غيره من أسمائه تعالى؛ لِمَا لهذه اللفظة من خصوصية، فهي خالية من النقط، وتخرج دون تحرك الشفتين، وذات نغمة خفيفة على اللسان البشري، ومهما نقصت حروفها يبقي مدلولها كما هو، انظر: إذا حذف الحرف الأول كقوله ـ تعالى ـ :﴿وَلِلَّهِ ٱلأَسمَآءُ ٱلحُسنَىٰ فَٱدعُوهُ بِهَا﴾(١)، أو الحرفين الأول والثاني كقوله: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ﴾(٢)، أو الحروف الأول والثاني والثالث، وبقيت الهاء مشكولة بالضمة المتولدة عنها الواو كما في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ٱتَّبِع مَآ أُوحِيَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٣)، أو حُذف الحرف الثاني كقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰه وَفِي ٱلأَرضِ إِلَٰه﴾(٤)، فإنه يبقي المدلول الإلهي كما هو، ولعل السبب في خفتها في جميع أوضاعها كي تسهل على المحتضر فيتمكن من النطق بها دون أنْ يحرِّك شفتيه أو أسنانه(٥) .

وأسلوبه ﷺ في قوله: "وَلَيَنْزِعَنَّ ... الوَهَنَ" حقق بعدًا نفسيًّا لدي المتلقي، وهي سمةٌ من السمات البلاغية للحديث الشريف، إذ نجد في أحاديث كثيرة أساليب مختلفة لإثارة الذهن، وحمل المتلقي على حالة التهيؤ لاستقبال المفاهيم، فجاء سؤال أحدهم "يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟" وفي هذا النظم من دقة التركيب ما فيه، حيث قدم النداء، وآثر أنْ يكون بالوصف دون اسمه ﷺ وذلك لتعظيمه ﷺ، ولأنَّ المقامَ مقامُ تعليم،

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٨٠

(٢) سورة البقرة من الآية ١١٦

(٣) سورة الأنعام من الآية ١٠٦

(٤) سورة الزخرف من الآية ٨٤

(٥) ورد هذا الكلام والرد عليه من حيث صحته والأخذ به وصحته لغويا وعلميا في استفتاءات مجمعيّة يُجيب عنها رئيس المجمع العلمي العراقي(مجمع الخالدين) الأستاذ الدكتور محمد حسين آل ياسين برابط مباشر على موقع شبكة الإنترنت:

(https://www.iraqacademy.iq/?page=15) والله تعالي أعلم .

والإضافة للتشريف والتعظيم، والوهنُ: بسكون الهاء وفتحها لغة، ويبدو الاتساقُ الأسلوبيُّ واضحًا بين قوله ﷺ "وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ" وسؤال الصحابة الكرام " وَمَا الْوَهْنُ؟" وذلك من خلال تعريف "الوَهَن" في الموضعين بـ " أل "، وفي هذا دلالة على أنَّ الصحابة الكرام أدركوا بحسِّهم المُرْهف، وعربيتهم الخالصة أنَّه ﷺ أراد معنى جديدًا للوهن غير المتعارف عليه عند العرب، وغير المترسخ في عقول الصحابة الكرام، وغير ما تضمنته ونصَّت عليه كتب اللغة من أنَّ الوهن: الضعف[١]، قال الخليل(ت:١٧٠هـ) :"الوَهْنُ: الضَّعْفُ في العمل وفي الأشياء، وكذلك في العَظْم ونحوه، ورجل واهن في الأمر والعمل"[٢]، ومن هنا سارع الصحابة الكرام إلى السؤال عنه لطلب معرفته، فالاستفهامُ حقيقيٌّ أفاد أنَّ المسؤولَ عنه مجهول، وأن السائل في شوق ولهفة إلى معرفته، وهذا السؤال يكشف رغبة الصحابة الصادقة في معرفة ما أراد النبي ﷺ أنْ يلفتهم إليه، وجاء سؤال الصحابة الكرام بأداة الاستفهام "ما" التي يُسأل بها عن غير العاقل[٣]، فهي يطلب بها تصور ما لا يعقل كقوله ـ تعالى ـ :﴿ قَالَ فَمَا خَطبُكُم أَيُّهَا ٱلمُرسَلُون ﴾[٤]، وهي مبتدأ، والوهنُ خبره، والسؤال إمَّا عن سبب هذا الوهن وموجبه، أو عن نوعه، قال " القاري (ت:١٠١٤هـ)" : "وَمَا الْوَهْنُ؟ أَيْ مَا سَبَبُهُ وَمَا مُوجِبُهُ؟"[٥]، وقال "الطيبي (ت:٧٤٣هـ)" : "وما الوهن؟ سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن؟"[٦]، وبهذا يكون الرسول ﷺ قد

---

(١) الصحاح للجوهري "وهن" ٢٢١٥/٦ ، ط: الرابعة – دار العلم للملايين – بيروت ١٤٠٧ هـ .

(٢) معجم العين "وهن" ٩٢/٤ ط: دار ومكتبة الهلال – غير مؤرخة .

(٣) ينظر: شروح التلخيص ٢١٦/٢ ط: دار السرور، المطول ص ٢٣٢ ط: مطبعة أحمد كامل .

(٤) سورة الذاريات الآية ٣١ .

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٦٦/٨ .

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ، تح : د/ عبد الحميد هنداوي ، ٣٣٩٤/١١ ، ط : مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة) ط : الأولى١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

مهد بأسلوبه تربةً خصبةً في أذهان أصحابه لتلقي البيان الشريف، وهذا التمهيدُ ظهرت آثارُه واضحةً في سؤالهم .

ويأتي جواب النبي ﷺ غايةً في الدقة، حيث جاء مبنيًّا على أسلوب الحذف، فحذف المسند إليه من الكلام، إذ الأصل: الوهنُ حُبُّ الدُّنْيَا...، وهذا الحذفُ جاء لدلالة السياق المقالي عليه، وقد ظهرت بلاغته في الإيجاز الذي حفظ العبارة النبوية من الترهل، وهو مسلك في لغة العرب حميد، إذ العربُ تحذفُ من كلامها ما قامت القرائن على وجوده مقدرا.

وعند التأمل في البناء التركيبي لهذا الجواب من النبي ﷺ يلاحظ بناءه بناءً اسميًّا "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ" وهو ما يوحي بأنه أمر ثابت وواقع لا محالة، وقد جاء البناء متسقًا مع القاعدة اللغوية، حيث جاء المضاف في الموضعين نكرة مضافة إلى معرفة، وقد أفادت الإضافة التخصيص، ويأتي التعريف في المضاف إليه في الموضعين ليشير إلى الدُّنْيَا بكل ما فيها من ملذات، والموت بكل أشكاله وصوره .

وتأتي الواو التي لمطلق الجمع؛ ليعطف بها على حُبِّ الدُّنيا أمرًا أخر، ألا وهو "كَرَاهَةُ الْمَوْتِ"، وبهذا تجمع المقابلة بين طرفيها مفهوم الوهن الذي أراده النبي ﷺ، ولقد انتقل الوهن من معناه اللغوي وهو الضعف إلي معني أعمق يمثل حقيقة الوهن، وهو سيطرة حب الدنيا في قلب المرء، وكراهية مفارقة هذه الحياة، والتشبث بالدنيا وملذّاتها، وكأنه أراد بالوهن هنا ما يوجبه وفسره بـ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ"، "وهما مُتَلَازِمَانِ فَكَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الدَّنِيَّةِ فِي الدِّينِ مِنَ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ "[1].

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٣/١١ .

وعلى هذا فقوله ﷺ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ" تفسير للوهن بذكر أسبابه، والعطف أفاد أنَّ الوهن الذي أراده ﷺ هو الجامع بين الأمرين معًا، وهو ما يؤدي إلى ضعف في العقيدة، ومن مظاهر حُبِّ الدُّنْيَا وكراهة الموت ترك الجهاد في سبيل الله، وحب الراحة والدعة وطول العمر، فمن أصابه ذلك فقد نسي أنَّ الشهداءَ أحياء عند ربهم، وتشبَّه باليهود في كونهم ﴿أَحرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[1]، فهان عليهم أمر الدين، وأغرموا بحب الدنيا فاستعبدتهم، وهان أمرهم على أعدائهم، وقد تكفلت بعض الآيات القرآنية بذكر أهداف الجهاد وغاياته، قال ـ تعالى ـ :﴿قَٰتِلُوهُم يُعَذِّبهُمُ ٱللَّهُ بِأَيدِيكُم وَيُخزِهِم وَيَنصُرُكُم عَلَيهِم وَيَشفِ صُدُورَ قَومٍ مُّؤمِنِينَ ١٤ وَيُذهِب غَيظَ قُلُوبِهِم﴾[2]، ومنه أيضًا ترك الزكاة التي بينت الآيات الهدف منها في قوله ـ تعالى ـ :﴿خُذ مِن أَموَٰلِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3].

ونلحظ أن الجواب جاء في بنية المقابلة، وقد جعل فيها ﷺ الدنيا ضد الموت، وليست الحياة، والمعرف أن الدنيا تقابل الآخرة، والحياة تقابل الموت، ولعل الحكمة في جعله ﷺ الدنيا مقابلة للموت؛ أن حب الموت الذي يعد مدلولا ضمنيا هنا هو الموت شهادة في سبيل الله، ومن المعروف أنَّ الشهداءَ أحياءٌ عند ربهم يرزقون، لذلك لم يجعله ﷺ مقابلا للحياة .

وكأن الرسول ﷺ يستقرئ تاريخ الأمم وتراجع الحضارات من خلال محطات الضعف التي تمر بها وتسبب في تراجعها، وهذا أمر غيبي لا يتعارض مع مقتضيات الرسالة التي جاء بها من الله، إذ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أظهره عليها بعلمه، وفيه إشارة إلى الأمم الميتة، أو التي تكاد تموت وتنسحب من مضمار الحياة لتتكدس

---

(١) سورة البقرة من الآية ٩٦ .

(٢) سورة التوبة الآيتان ١٤ ، ١٥

(٣) سورة التوبة من الآية ١٠٣

علي ضفافه، ويلوغ الأمة هذه الحالة "يجعلها مطمعاً للأعداء والغزاة، ليتكالبوا عليها ويستنفذوا خيراتها[١] "ولا يقصد كراهية الموت هنا عدم الرغبة في هذا المصير؛ لأن النفس الإنسانية مجبولة على ذلك، ولكن المقصود هو كره لقاء الله عند الموت؛ لأنه عندها يعرف مكانه في الآخرة سواء كانت جنة أو ناراً، وهذا ما يوضحه الحديث الذي روته السيدة عائشة –رضي الله عنها– قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[٢] " إن هناك الكثير من العوامل التي أدت إلى هذا التراجع الحضاري، ولعل منها: البعد عن الدين، والانشغال بعروض التجارة والزراعة، واستفحال الربا في المعاملات الاقتصادية، فكان الهدف من هذا الحديث: "تحذيرهم من السبب الذي كان العامل على تكالب الأمم وهجومهم علينا، ألا وهو "حب الدنيا وكراهية الموت" فإن هذا الحب والكراهية هو الذي يستلزم الرضا بالذل والاستكانة إليه والرغبة عن الجهاد في سبيل الله على اختلاف أنواعه من الجهاد بالنفس والمال واللسان وغير ذلك، وهذا هو حال غالب المسلمين اليوم مع الأسف الشديد، فالحديث يشير إلى أن الخلاص مما نحن فيه يكون بنبذ هذا العامل، والأخذ بأسباب النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، حتى يعودوا كما كان أسلافهم "يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة"، وما أشار إليه هذا الحديث قد صرح به حديث آخر

---

(١) أهداف التربية الإسلامية، د/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ٢٦٨ ط: أولي دار القلم – بيروت ، غير مؤرخة .

(٢) صحيح مسلم حديث رقم ٢٦٨٤ بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ .

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ[1]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»"[2] فتأمل كيف اتفق صريح قوله ﷺ في هذا الحديث " لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم " مع ما أشار إليه الحديث الأول من هذا المعنى"[3] .

والمسلمون اليوم مطالبون بتوعية الناس بهذه المفاهيم وتجليتها أمام أعينهم، ليتعرفوا علي الواقع الذي يعيشونه من انخفاض كلمة المسلمين وضعف صوتهم العالمي، ثم يقوموا بالتخلص من هذا الوهن الذي أخلدهم إلي الأرض، وأرضاهم بالقعود عن القيام لله، ونخلص مما سبق إلي: أن كمال الوهن سيطرة حب الدنيا وكراهية الموت على القلب أكثر من سيطرة الخور والضعف وحب الراحة على الجسد[4].

بقي شيء يجب التنبيه إليه وهو أن المخاطبين بهذا القول بعيدون عن الزمن الذي سيئول فيه أمر المسلمين إلى هذه الحال، ومع ذلك جاء الخطاب موجها إليهم بشكل مباشر، يبدو ذلك واضحًا في ضمائر الخطاب المتكررة في الحديث "عَلَيْكُم – أَنْتُمْ – ولَكِنَّكُمْ – عَدُوَّكُمْ – مِنْكُمْ – قُلُوبِكُمْ) ولعلنا لا نبالغ إذا استنبطنا لطيفة بلاغية من هذا الخطاب المباشر تتمثل في دلالة ذلك على تأكيد دلالة المقاربة، فما سيحدث

---

(١) أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه نقداً بأقل من الثمن الذي باعها به .

(٢) سنن أبي داود ، حديث رقم ٣٤٦٢ ، بَابٌ فِي النَّهْيِ عَنِ العِينَةِ .

(٣) مستفاد من: "مقالات ومتفرقات للشيخ الألباني" ٥٢/٥ المكتبة الشاملة الذهبية ، غير موافق للمطبوع .

(٤) ينظر: أصالة المسميات المعهودة في المفاهيم النبوية وانعكاساتها التربوية "دكتوراه" للباحث: حامد أحمد إبراهيم، ص ٢٣،٢٢ كلية التربية – جامعة أم القري – السعودية ١٤١٧هـ .

مستقبلًا يخاطب به الحاضرون، وكأنه سيقع لهم هم، كما يشيرُ إلى الرباط العضوي بين المسلمين أيضًا فمهما اختلف الزمن، وتباعد بين جيل وجيل من المسلمين، فإنَّ ما أصاب الماضين يؤلم الحاضرين، وما سيصيب الآتين يؤلم الماضين، كما يحملُ دلالة أخري تتمثلُ في التوجيه الذي لا يخلو من دلالة الطلب، إذ يحملُ السياق أمرًا ضمنيًّا باليقظة لأسباب هذا الهوان .

هكذا رأينا حرصَه ﷺ على دوامِ العزة لأمته، وهذا نابعٌ من حُبِّه العميق لهذه الأمة، كما رأينا أسلوبَه المتنوع الدال على بلاغته ﷺ .

خاتمة

الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى مَن أَرْسَلَهُ رَبُّه بِأَعْظَمِ الرِّسَالَات، سَيِّدنا مُحَمد وعلى آله وصحبه، ومَن والاه، **وبعد** :

فبعد هذه الدراسة البلاغية لهذا الحديث النَّبَويِّ الشَّرِيْفِ يمكن رصد النتائج التالية:

١- هذا الحديث يعد دليلًا على نبوءته ﷺ، ومعجزة من معجزاته، حيث أخبر عن أمر سيقع لأمته ﷺ من بعده، وقد حدث وفق ما أخبر به .

٢- جمع الحديث في بنيته التركيبية بين الأسلوبين الخبري والإنشائي فتكامل النظم وثبتت الفائدة .

٣- تنوعت ألفاظ الحديث بين الفعلية : يوشك- تداعي- لينزعن- ليلقين، والاسمية التي تنوعت بين الاسم الصريح: الأمم- الأكلة- قصعتها- غثاء- السيل - الوهن ...، والمصدر الصريح: حُب - كراهية، والمصدر المنسبك من (أنْ) والفعل، : أنْ تداعي، وذلك دليل على ثراء لغته ﷺ .

٤- هذا الحديثُ يمثِّلُ قطعةً نثريةً فريدةً من الحوارِ الهادفِ والمتميِّز بينه ﷺ وبين صحابته الكرام، حيث يبدأ ببيانه ﷺ لِمَا سيؤول إليه حال المسلمين في المستقبل القريب، ويؤثر ذلك الخبر في نفوس سامعيه، فيدفعهم إلى التساؤل عن سبب ذلك، فيجيبهم ﷺ جوابًا في غاية من الدقة والوضوح .

٥- يظهر من الحديث الجانب التربوي السليم في التعليم في التمهيد للأخبار بما يثير النفوس، ويجعلها مهيأة لتلقيها، فتثبت فيها وتتمكن.

٦- جاء التشبيه في الحديث – كغايته في البيان النبوي – للبيان والتوضيح والإقناع، وهو مستمدٌ من البيئة، فكان أكثر وقعًا، وأشدَّ تأثيرا .

٧- تآزرت اللطائف البلاغية المتنوعة من: الأسلوب الخبري والإنشائي، والحذف والاستفهام، والتوكيد والتشبيه، والمقابلة وغير ذلك في الإفصاح عن الدلالة المقصودة، فجاء الأسلوب غاية في البيان والإحكام .

والله تعالي أعلم، والحمد لله رب العالمين .

فهرس بأهم المصادر والمراجع

*القرآن الكريم – جل من أنزله سبحانه .

*إتحاف الخيرة المهرة– أبو العباس شهاب الدين.. الشافعي تح: دار المشكاة ط أولي١٩٩٩م.

*إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي– ابن حجر العسقلاني الناشر: دار ابن كثير– بيروت

*إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض– الطبعة الأول، دار الوفاء– مصر ١٤١٩هـ .

*الإيضاح للخطيب القزويني ط دار إحياء العلوم – بيروت ط رابعة ١٩٩٨م .

*الأجوبة الجلية لمن سأل عن شرح ابن عقيل للألفية .

*أصالة المسميات المعهودة في المفاهيم النبوية وانعكاساتها التربوية، د/ حامد أحمد إبراهيم .

*أهداف التربية الإسلامية، د/ ماجد عرسان الكيلاني ط: أولي دار القلم – بيروت، غير مؤرخة .

*أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: محمد محيى الدين، طبعة دار الطلائع – القاهرة٢٠٠٤هـ .

*البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط أولى الحلبي ١٩٥٧م .

*تاج العروس– الزُّبيدي، تح: مجموعة من المحققين– الناشر دار الهداية .

*التاريخ الكبير للبخاري– طبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن .

*جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير- تح: عبد القادر الأرنؤوط - ط أولى مطبعة الملاح .

*الجنى الداني للمرادي تح: د/ فخر الدين قباوة وآخرين ط: دار الكتب العلمية بيروت١٩٩٢م .

*دراسات في المعاني والبديع، د/ عبدالفتاح عثمان- نشر مكتبة الشباب مطبعة التقدم .

*دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني تح: محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة- الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

*دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان البكري، ط: الرابعة دار المعرفة بيروت ١٤٢٥هـ .

*سنن أبي داود السِّجِسْتاني تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية- صيدا- بيروت.

*سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ط : دار إحياء الكتب العربية .

* شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسي، ط: الثانية مكتبة وهبة القاهرة ١٤٣١هـ .

*شرح السنة للإمام البغوي، ط: ثانية - المكتب الإسلامي - دمشق ١٩٨٣م .

*شرح سنن أبي داود للعيني، تح: خالد بن إبراهيم المصري، ط: أولي -مكتبة الرشد ١٩٩٩م .

*شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، تح : د/ عبد الحميد هنداوي، ط: أولي مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

*شروح التلخيص - ط دار السرور- بيروت .

*شعب الإيمان للبيهقي تح: محمد السعيد بسيوني، ط: أولى دار الكتب العلمية– بيروت ١٤١٠هـ .

*صحيح الجامع الصغير للألباني (ت:١٤٢٠هـ)، ط : المكتب الإسلامي .

*صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

*عروس الأفراح للسبكي تح: د/عبد الحميد هنداوي، ط: أولي المكتبة العصرية بيروت– لبنان ٢٠٠٣م.

*عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي، ط: ثانية دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ .

*الفوائد المشوّق المنسوب لابن قيم الجوزية ط: ثانية دار الكتب العلميّة ١٤٠٨هـ .

*الكشاف لجار الله الزمخشري، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: ثالثة ١٤٠٧هـ .

*كنز العمال للمتقي الهندي تح: بكري حياني– صفوة السقا ط: الخامسة مؤسسة الرسالة١٩٨١م .

*لسان العرب لابن منظور ط: دار صادر – بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ .

*مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ط: أولي مؤسسة الرسالة٢٠٠١م .

*مشكاة المصابيح للتبريزي، تح/ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت .

*المعجم الأوسط للطبراني، تح/ طارق بن عوض الله وغيره– ط: دار الحرمين– القاهرة ١٤١٥هـ.

*المعجم الكبير للطبراني، تح: حمدي السلفي- ط: مكتبة العلوم بالموصل ط ثانية ١٩٨٣م .

*المعجم الكبير للطبراني تح: حمدي عبد المجيد السلفي، ط: ثانية دار إحياء التراث العربي ١٩٨٣م .

*معجم اللغة العربية المعاصرة، د/أحمد مختار عمر، ط أولي- عالم الكتب ٢٠٠٨م.

*المعجم الوجيز- مجمع اللغة العربية- تقديم: د/شوقي ضيف ط: وزارة التربية والتعليم٢٠٠٣م.

*مفتاح العلوم للسكاكي، تح: نعيم زرزور- دار الكتب العلمية - بيروت- ط: ثانية ١٩٨٧م .

* المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ط: الأولى دار ابن كثير- بيروت١٤١٧هـ.

* نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، تح: نصرالله حاجي، ط: أولى دار صادر – بيروت ٢٠٠٤م .